

ظهور الدولة الطولونية وانقراضها

من سنة ٢٥٤ إلى ٢٩٢

بداية الطولونيين

ظهرت بوادر الضعف في العباسيين، وكادت تصبح سلطتهم اسمية، وخلافتهم دينية لا دنيوية، ساعد على ذلك اشتغال الخلفاء بعد المعتز بأنفسهم، وتغلب كثير من الأمراء على الأطراف، وأصبحت البلاد رهن أيدي المتغلبة من العمال، وكان معظم الخلفاء الأول إلى ما بعد المعتصم على غاية من العلم والأخلاق وحسن السياسة، ومن النادر أن يتسلسل هذا الرقي في الأخلاق في آل بيت واحد على اطراد جميل، كما تسلسل في بني هاشم لأول أمرهم، ولكن منهم من ساعدهم الطالع ومنهم من خانته، والسعادة أكثر من الشقاء في الجملة.

وبينما كانت دولة الأمويين في الأندلس في إبان عزّها في القرن الثالث، كانت دولة العباسيين تضطرب وتضيق بقعتها في هذا الشرق القريب، خصوصا في النصف الثاني من المائة الثالثة، وعمال فارس ومصر والشام وغيرها يقطعون الخراج عن دار الملك، ويستبدون بالأمر، وليس للخليفة العباسي إلا الخطبة والسكة، وقد يقرن المتغلب على قطر اسمه إلى اسم الخليفة في الدعاء، ويضرب السكة باسمه أو باسميهما معا. وكانت الدولة إلى هذا العهد لا تقوم لها قائمة إلا إذا جمعت بين السلطتين الدينية والدنيوية، فإذا ضعفت إحداهما في القائم بأمر المسلمين، أصاب القوة الثانية ضعف عطلها عن العمل النافع.

وكلما اعتمد خلفاء بني العباس على الأعاجم، في ولاية عمالاتهم ومقاطعاتهم وقيادة جيوشهم، كانت الدولة العباسية تقترب من الانقراض، فسدت عصبية العرب كما قال ابن خلدون في بني العباس لعهد دولة المعتصم وابنه الواثق، لاستظهارهم بالموالي من العجم والترك والديلم والسلجوقية أي التركمان وغيرهم،

ثم تغلب الأولياء على النواحي، وتقلص ظل الدولة، فلم تكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف إليها الديلم وملكوها وصار الخلائف في حكمهم. وقال المقرئ: اختص المعتصم الأتراك ووضع من العرب وأخرجهم من الديوان وأسقط أسماءهم ومنعهم العطاء، وجعل الأتراك أنصار دولته وأعلام دعوته، وكان من عظمت عنده منزلته قلده الأعمال الجليلة الخارجة عن الحضرة، فيستخلف على ذلك العمل الذي تقلده من يقوم بأمره ويحمل إليه ماله ويدعى له على منابرهم كما يدعى للخليفة، وقصد المعتصم ومن بعده من الخلفاء بذلك العمل مع الأتراك محاكاة ما فعله الرشيد بعبد الملك بن صالح والمأمون بطاهر بن الحسين، ففعل المعتصم مثل ذلك بالأتراك فقلد أشناس، وقلد الواثق إيتاخ، والمتوكل بغا ووصيف، وقلد المهدي أماجور وغير من ذكرنا من أعمال الأقاليم، فضعفت الدولة العباسية بعد الاستفحال، وتغلب على الخليفة فيها الأولياء والقراة والمصطنعون، وصار تحت حجرهم من حين قتل المتوكل فتغلب على النواحي كل ممتلك.

أحمد بن طولون وسيما الطويل وأحداث أخرى

وكان من أهم من فتوا في عضد الخلافة أحمد بن طولون في مصر والشام، وكان في ظاهره يظاهر الخليفة، فهو أول متغلب ظفر حقيقة بالانفراد بالسلطة، فما وسع العباسيين إلا مصانعتهم بعد أن حاولوا محاربتهم

فعبجزوا، كانت ديار مصر قد أقطعها بايكباك من قواد الأتراك وكان مقيما بالحضرة أي في عاصمة الملك فاستخلف بها من ينوب عنها، وكان طولون والد أحمد بن طولون أيضا من الأتراك ومن أنسابه، وقد نشأ بعد والده على طريقة مستقيمة، وسيرة حسنة، فالتمس بايكباك من يستخلفه بمصر فأشير عليه بأحمد بن طولون فولاه المعتر بالله سنة ٢٥٤ مصر. وفي سنة ٢٦٤ توفي أماجور بدمشق واستخلف ابنه علي، فحرك ذلك أحمد بن طولون على فتح الشام فكتب إلى علي يخبره بأنه سائر إليه

وأمره بإقامة الأنزال والميرة لعساكره، فرد علي بن أماجور أحسن جواب، وخرج ابن طولون في المطوعة من مصر وقلسطين فبلغ الرملة فتلقيه محمد بن رافع خليفة أماجور عليها وأقام الدعوة بها فأقره عليها، ومضى إلى دمشق فتلقيه علي بن أماجور وأقام له بها الدعوة واحتوى على خزائن أماجور وأقام بها أحمد حتى استوثق له أمرها، ثم استخلف عليها أحمد بن دوغباش، ومضى إلى حمص فلقه عيسى الكرخي خليفة أماجور عليها فسلمها إليه، ثم بعث إلى سيما الطويل التركي وهو بإنطاكية يأمره بالدعاء له فلم يجبه سيما، فتحصن بإنطاكية في جيش من الأتراك وغيرهم، وامتنع، فحاصره أحمد ورمى حصنها بالمنجنيق، وطال حصاره لها فاشتد ذلك على أهلها فبعثوا إلى أحمد بن طولون فخبروه بالموضع الذي يمكنه أن يدخل إليها منه فقصدته، وعاونه أهلها على سيما فدخلها في المحرم سنة خمس وستين ومائتين فقتل سيما واستباح أمواله ورجاله. وكان قبل نزول ابن طولون على إنطاكية ٢٦٤ وقع بين سيما وبين أحمد المؤيد حروب كثيرة ببلاد جند قنسرين والعواصم، وكان سيما قد عم أذاه أهلها فعاث ابن طولون ساعة بإنطاكية ثم ارتحل يؤم الثغر الشامي، وبهذا استولى ابن طولون على الشام أجمع والثغور وامتد حكمه من مصر إلى

الفرات، ومن مصر إلى المغرب، وكان ذلك مدة اشتغال لموفق أبي أحمد طلحة بن المتوكل بحرب الزنج.

كان ابن طولون أول من اقتطع جزءا من المملكة الإسلامية عن الخلافة، وجمع بين ملك مصر والشام في الإسلام، فكان لمن بعده من المستبدين بالنواحي قدوة ومثالا. وأخذ يستكثر من مشترى الممالك والديالمة حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك وأربعين ألفا من الزنج، واستكثر من العرب حتى بلغت عدتهم سبعة آلاف. وذكر بعض المؤرخين أن ابن طولون كان أعد بأمر الخليفة جيشا مؤلفا من مائة ألف إنسان لقتال أحد الخوارج على الخلافة في الشام، وكانت هذه الكتلة من الجند سببا في قوته وسلطانه فأخذ ملك الروم يهاديه ويطلب رضاه لاتساع مملكته ومكانتها بين مملكة الشرق ومملكة الغرب الإسلاميتين، ولم يلبث أحمد بن طولون أن أخذ على الجند والساكرية والموالي وسائر الناس البيعة لنفسه، على أن يعادوا من عاداه ويوالوا من والاه ويحاربوا من حاربه من الناس جميعا. وانفرد بخراجها، وأدرك رجال السياسة في بغداد أن ابن طولون التركي لم يقض على دولة سيما الطويل التركي حبا بسواد عيون الخلفاء، بل ليستأثر بالأمر دونهم عندما تسنح الفرص.

وكان ابن طولون لعدله وحسن سياسته يفضله الناس على بعض الخلفاء، وفي الحق أنه كان على جانب من العدل، وحسن السيرة، وعلو الهمة وبعد النظر، والتفكر في عمران مملكته حتى زاد خراجها، وكان هديه في ذلك هدي المعتصم العباسي، وكان هذا يحب العمارة ويقول: إن فيها أمورا محمودة أولها عمران الأرض التي يحيى بها العالم، وعليها يزكو الخراج، وتكثر الأموال، وتعيش البهائم، وترخص الأسعار، ويكثر الكسب، ويتسع المعاش، وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك: إذا وجدت موضعا متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة أحد عشر

درهما فلا تؤامرني فيه. فاستعان ابن طولون بما تدر عليه مصر من الخراج على تقوية سلطانه وكثرت صدقاته، وما يجريه على القراء والفقهاء، حتى كان يرسل كل سنة مائة ألف دينار لفقراء بغداد عدا كساوي الصيف والشتاء وعدا ما يرسل به إلى الثغور وإلى الحرمين.

وجاء المعتضد إلى الخلافة وهو من أعقل خلفاء العباسيين فعرض عليه أبو الجيش خمارويه بن طولون أن يصهر إلى ولي عهد الخلافة ويزوجه ابنته قطر الندى، فقال الخليفة: بل أنا أتزوجها وقال: ما قصدت بهذا الزواج إلا إفقار بني طولون لأنهم يضطرون أن يجهزوها بجهاز لم تجهز به عروس من قبل، وكان الأمر كما قال، فإنها جهزت بما استفرغ خزائن صاحب مصر والشام. قيل: إنه كان في جهازها ألف هاون ذهباً. وكانت قطر الندى من أجمل بنات عصرها، وأكثرهن أدبا وفضيلة. وقد عقد لها على المعتضد سنة ٢٨١ وشرط المعتضد على أبيها أن يحمل كل سنة بعد القيام بجميع وظائف مصر وأرزاق أجنادها مائتي ألف دينار. وفي رواية أن المعتضد جعل لخمارويه الصلاو والخراج والصلاة وجميع الأعمال على أن يحمل في كل عام مائتي ألف دينار عما مضى، وثلاثمائة ألف للمستقبل، وأن وزير المعتضد عبيد الله بن سليمان سعى مع أبي الجيش خمارويه، على أن يقتصر على حمص ودمشق والأردن وفلسطين ومصر وبرقة وما والاها، وينجلي عما كان في يده من ديار مضر وقنسرين والعواصم وسقي الفرات والثغور، فأجاب إلى ذلك وكتب سجلا أشهد فيه على المعتضد وعلى خمارويه.

دام ملك أحمد بن طولون في مصر والشام اثنتي عشرة سنة، ومات لست عشرة سنة من ولايته مصر، ولولا سفكه الدماء لعدَّ بعدله وعقله وسخائه من أفراد العالم. ومن الأحداث في عهده ما وقع من العصبية بفلسطين ٢٥٧ بين لحم وجذام فتحاربوا حربا أخذت من الفريقين. وما

وقع بين الأمير نعمان الذي حصن سور مدينة بيروت وقلعتها وبين المردة في لبنان من قتال على نهر بيروت دام أياما حتى انهزموا، وقتل بعضهم وأسر بعضا، فأرسل الرءوس والأسرى إلى بغداد، فعرض الأمر على الخليفة وأكرموا رُسله، وكتب المتوكل إليه كتابا يمدح شجاعته ويحرضه على القتال، وأقره على ولايته هو وذريته، وأرسل له سيفاً ومنطقة وشاشا أسود، وكتب إليه الموفق وغيره كتباً يمدحونه بها فاشتد أمره وعظم شأنه، وفي بعض الروايات أن القتال على نهر الكلب دام سبعة أيام، فانكسر عسكر المسلمين وقتل المقدم سمعان وأقيم مكانه خاله المقدم كسرى وهو الذي ذهب إلى

القسطنطينية ثم عاد إلى بلاده، وكانت خربت من تواتر الغارات عليها فعمرها وسميت باسمه كسروان. ومنها خروج رجل من ولد عبد الملك بن صالح الهاشمي، يقال له بكار بين سلمية وحلب وحمص فدعا سنة ٢٦٨ لأبي أحمد الموفق، فحاربه ابن عباس الكلابي فانهمز الكلابي، ووجه إليه لؤلؤ صاحب ابن طولون قائدا في عسكر كثيف، فرجع وليس معه كثير أحد. ومنها مخالفة لؤلؤ غلام ابن طولون على مولاه سنة ٢٦٩ وكان في يد لؤلؤ حمص وقنسرين وحلب وديار مضر من الجزيرة وسار إلى بالس ونهبها، وكتب ابن طولون الخليفة المعتمد في المصير إليه، فمنعه الموفق واشتد الخلاف بين الموفق ولي عهد الخلافة وبين ابن طولون، فخلع ابن طولون الموفق من ولاية العهد في مدينة دمشق وأقبل يلعنه على منابر مصر والشام والموفق يلعنه على منابر العراق وما إليها، وابن طولون يوهم أنه ينصر الخليفة.

وفي سنة ٢٦٩ غزا الصائفة من ناحية الثغور الشامية خلف الفرغاني عامل ابن طولون، فقتل من الروم بضعة عشر ألفا وغنم الناس. وبلغ ابن طولون قدوم عرب من الحجاز إلى حوران، فأرسل إلى صحراء أذرعات

نحو خمسين ألفا فتلقاهم الأمير عامر الملقب بالأذرعى بخمسة عشر ألفا فكسروهم. والأمير عامر هو من نسل الحارث بن هشام المخزومي، الذي أرسله الخليفة الثاني إلى الشام مع أبي عبيدة بن الجراح أميرا على بني مخزوم فسكن ولده حوران وتولوا الأعمال للأمويين، ثم للعباسيين وسموا ببني شهاب نسبة للأمير شهاب المخزومي والي حوران المتوفى سنة ١٧٣.

عهد أبي الجيش خمارويه وجيشه

خلف أحمد بن طولون ابنه أبو الجيش خمارويه، وكان على قدم أبيه في الاستكثار من العدد والعدد وترتيب الرواتب الدارة والمشاهرات والجرايات لجيشه وغيره.

وقد بلغ جيشه في الشام ومصر نحو أربعمئة ألف فارس على ما روى بعض أصحاب السير، وهو عدد مبالغ فيه كثيرا والغالب أن جيشه لم يتجاوز المائة ألف، ولا شك أن مثل هذا الجيش، وما يلحقه من الرجال والمتطوعة تفتح به ممالك الخلافة العباسية كلها. وربما كان جيشه وجيش أبيه من قبله أول جيش جعل على الدوام تحت السلاح.

ولما بايع الجند أبا الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون بعد وفاة أبيه، أمر بقتل أخيه العباس لامتناعه عن مبايعته، وعقد لأبي عبد الله أحمد الواسطي على جيش الشام، وعقد لسعد الأعسر على جيش آخر، وبعث بمراكب في البحر لتقييم على السواحل الشامية، فنزل الواسطي فلسطين وهو خائف من خمارويه أن يوقع به لأنه كان أشار عليه بقتل أخيه العباس، فكتب إلى أبي أحمد الموفق يصغر أمر خمارويه ويحرضه على المسير إليه، فأقبل من بغداد وانضم إليه إسحاق بن كنداج ومحمد بن أبي الساج، ونزل الرقة فتسلم قنسرين والعواصم وسار إلى شيزر، فقاتل

أصحاب خمارويه وهزمهم ودخل دمشق، فخرج خمارويه في جيش عظيم، فالتقى وأحمد بن الموفق بنهر أبي فطرس واقتتلا، فانهزم أصحاب خمارويه وكان في سبعين ألفا وابن الموفق في نحو أربعة آلاف، واحتوى على عسكر خمارويه بما فيه ومضى خمارويه إلى الفسطاط، وأقبل كمين له، عليه سعد الأعسر، ولم يعلم بهزيمة خمارويه فحارب ابن الموفق حتى أزاله عن المعسكر وهزمه اثني عشر ميلا ومضى إلى دمشق فلم يفتح له، وسار سعد الأعسر والواسطي، فملكا دمشق، وخرج خمارويه من مصر فوصل إلى فلسطين، ثم عاد إلى مصر، ثم خرج سنة ٢٧٢ فقتل سعدا الأعسر ودخل دمشق.

قال ابن عساكر: وسعد الأعسر ويقال الأعسر التركي ولي إمرة دمشق من قبل أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ٢٧٢، ولما قتل في قصر نخلة فيما بين الرملة وبيت المقدس اضطرب الناس بدمشق. وكان سعد الأعسر قد فتح طريق الشام للحاج، لأن الأعراب كانوا قد تغلبوا على الطريق قبل ولايته، وكان قد بطل الحج من طريق الشام قبل ثلاث سنين، فخرج سعد إلى الأعراب وواقعهم وقتل منهم خلقا عظيما وفتح الطريق للحاج، وكانت وقائعهم في المحل المعروف بالقسطل، فأحبه أهل دمشق، واغتموا لقتله، فصاح الناس بدمشق وضجوا في المسجد الأموي ودعوا على من قتله، وافتنن البلد حتى وافاهم أبو الجيش بن خمارويه فمهد الأمور وبعث إلى طريق الحاج من أصلحها، وفرق في دمشق مالا عظيما على الفقراء والمساكين والمستورين وأهل العلم، ومال إليه أهل دمشق وأحبوه. ولما تغلب الأعراب على بعض النواحي وجه إليهم طباره جي، فقتل منهم مقتلة عظيمة.

ثم سار أبو الجيش خمارويه لقتال ابن كنداج، ثم اصطلحا وتظاهرا وكاتب خمارويه أبا أحمد الموفق في الصلح فأجابه إلى ذلك، وكتب له

كتابا بولاية خمارويه وولده ثلاثين سنة على مصر والشامات، أي أنه ولاء من الفرات إلى برقة، فأمر خمارويه بالدعاء لأبي أحمد الموفق، وترك الدعاء عليه بعد أن كان خلعه أبوه من ولاية عهد الخلافة. ثم بلغ خمارويه مسير محمد بن أبي الساج إلى أعماله الشمالية، فخرج إليه ولقيه في ثنية العقاب من دمشق فانهمز أصحاب ابن أبي الساج وثبت هو، فحاربه حتى هزمه أقبح هزيمة، واستبيح عسكره قتلا وأسرا، واتبعه جيش إلى الفرات. وفي ذلك يقول البحترى:

وقد تولت جيوش النصر منزلة على جيوش أبي الجيش بن طولونا
يوم الثنية إذ نسى بكرته خمسين ألفا رجالا أو يزيدونا

عهد جيش بن خمارويه وظهور القرامطة الطولونية

وفي أيام خمارويه بن طولون استقامت شئون الديار المصرية، ومع أن أيام

المعتضد العباسي كانت أيام فتوق فقد حمدت سيرته. ولي الدنيا خراب، والثغور مهملة، فقام قياما مرضيا حتى عمرت مملكته، وكثرت الأموال، وضبطت الثغور، وكان قوي السياسة، شديدا على أهل الفساد، حاسما لمواد أطماع عساكره عن أذى الرعية، محسنا إلى بني عمه من آل أبي طالب. وفي سنة ٢٨٢ ذبح أبو الجيش خمارويه في دمشق على فراشه، ولما بلغ المعتضد ذلك قتل من خدمه الذين باشروا قتله نيفا وعشرين خادما. وكان مقتل خمارويه في قصره بسفح قاسيون، بعد أن فتح الشام كله، ولم يسع الخليفة إلا إقراره على عمله والاكتفاء بمال يحمل إليه في بغداد، وخلفه ابنه جيش بن خمارويه فخلعه طغج بن جف أمير دمشق سنة ٢٨٣ واختلف جيش جيش عليه لتقريبه الأردال وتهديده قواد أبيه، فثاروا عليه وقتلوه، ونهبوا داره ونهبوا مصر وأحرقوها، وأقعدوا

هارون بن خمارويه في الولاية، وعصى هارون بن خمارويه على الخليفة، وبعد حروب كثيرة عقد الصلح بين الخليفة العباسي وبين هارون سنة ٢٨٦، فبقيت حلب للخليفة وما زالت الدولة بالفعل بالشام ومصر لبني طولون وبالإسم لبني العباس حتى سنة ٢٩٢، وقد بعث المكتفي العباسي، مع محمد بن سليمان جيشا فاستولى على دمشق، ثم سار إلى مصر وذبح بني طولون وهم عشرون إنسانا، ذبحهم بين يديه هم وقوادهم كما تذبح الشياه، وأشخص من أبقى عليه من آلهم وقوادهم إلى بغداد، فانقرضت بذلك الدولة الطولونية.

لا جرم أن روح الطولونيين هي روح العباسيين تطورت بتطور الأقطار التي استولوا عليها. وعلى كثرة ما بذل الطولونيون من أسباب التقرب من خلفاء بغداد لم يسكت العباسيون عنهم. تقربوا إليهم بالصهر والأموال والطاعة فلم يرضوا عنهم. ولما قوي جيش العباسيين قرضوهم وقتلوا قوادهم. وفي استيلاء الطولونيون على الشام شعرت الأمة أنها مستقلة عن العباسيين، وأن في استطاعتها إذا جهزت لها جيشا عظيما كجيش أحمد بن طولون وابنه خمارويه أن تستقل، لأن قوة بني العباس لم تعد كما كانت، بمعنى أن ابن طولون هتك ستر الخلافة، فطمع فيها عمال الأطراف. والدولة الطولونية دولة عمران، عمرت الأرجاء في أيامها، ورأت مصر والشام أنهما إذا ألفتا حكومة واحدة تصبحان دولة قوية يهرب بأسها. وقد أكثر الشعراء من رثاء الدولة الطولونية ومما قاله بعضهم:

فمن ييك شيئا ضاع من بعد أهله لفقدهم فلييك حزنا على مصر
لييك بني طولون إذ بان عصرهم فبورك من دهر وبورك من عصر